



سميراميس

السلسلة التاريخية



سميراميس

تأليف :- عبدالتواب يوسف

رسوم :- قاسم ولي

تصميم :- احلام عباس

مقدمة

إن بعض الأساطير حقائق عظيمة ! وربما لاتصدّق ذلك .
فتقول : الأسطورة محض خيال ، أو تقول : الأسطورة حُلمُ تمنى الإنسان يوما أن يتحقق . واقول لك : إن كلامك قد يكون صحيحاً ، ولكن ليس كل الحقيقة .. فبعض الناس غير الاعتياديين ، قد قاموا باعمال خارقة ، اذهلت البشر الذين عاشوا معهم ، في عصرهم فمجدوهم وجعلوهم ابطالاً . وهذه الأعمال هي أعمال انسانية ، من صنع البشر ، لكن ليس كل الناس يستطيعون القيام بها .. اما سمعت شاعرنا العظيم المتنبي يقول :

لولا المشقة ساد الناس كلّهم
الجودُ يُفقِر والاقدام قتال !

ولكنَّ بين الناس ابطالاً ، لايهابون المشقة ، ولايترددون أمام المخاطر ، لا يُثنيهم عن عزمهم شيء إذا اقدموا ، وإذا فعلوا ، اشياء لايستطع الآخرون فعلها او الاقدام عليها ..
وعندما يكون الإنسان على هذا النحو الرائع من البطولة في كل شيء في حياته ، يصبح حديثَ الناس الذين يعيشون في عصره ، فينال المجد الذي صنعه ، اضعافاً مضاعفةً من الذكر المقرون بالاكبار .. وعندما يمضي عصر البطل ، وتمرُّ عصور بعده ، ولايبقى منه إلاّ أعماله المجيدة ، فانَّ الناس من حبهم له وإكبارهم إياه ، يأخذون بتمجيده وتصويره ، وتكبر الصورة وتتضاعف تفاصيل الصورة حتى تصبح اسطورة .. وتسمىّ هكذا لأنها تقترب من الخيال ، ولكنها حقيقة وليس في اصلها تخيُّل او وهم
وانا ياصديقي القارىء ، لااريد ان أجعلك تتخيَّل او تصدِّق انَّ كل الأساطير هي حقائق ! لا ، ولا ، ولا .. ليس كل الأساطير حقائق ! فبعضها اوهام ، وبعضها تخيلات ، وبعضها أشياء يختلقها بعض الناس لأغراض في نفوسهم .. لكنني اريد ان أؤكد أنَّ بعض الحقائق قد أصبحت أساطير ، حتى كاد الناس لايصدقون انها حقائق ! لماذا ؟ لأنها اقرب إلى الخيال منها إلى الواقع ، ثم لماذا هذا ؟ الجواب :
لأنَّ صانعيها ابطال من البشر غير اعتياديين ، لكنهم بشر على كل حال ..
ستجد كلامي الذي قلته لك صحيحاً ، وواضحاً ، وستشاركني في رايي ، عندما تقرأ «أسطورة سميراميس» .. فيتراءى لك ان هذه المراة لم توجد إلا في خيال





الرواة ، ألقوهالنا عبر التأريخ فكبرت وضخمت ، كما تتضخم كرة الثلج عندما ترمى على الأرض المثلجة ! ولكن السيد تأريخ ، سرعان مايردُنا إلى الحقيقة ، ويقول لنا شهادته الصادقة بقلمه الذي لايمحوه الزمن ، سيقول لنا : إن «سميراميس» هي حقيقة ، أمرأة عظيمة حقيقية ، عاشت على الأرض وبين البشر لكنها عملت أشياء عظيمة

ولنسمع او نقرأ شهادة التأريخ كما يرويها لنا الأستاذ الدكتور فوزي رشيد ، حينما سألناه عن «سمير أميس» أسطورة هي أم حقيقة :

- «سميراميس»

قبل كل شيء ان أسمها باللغة الاشورية هو «سمَورامات» ومعناه «محبوبة الحمام» . وكانت زوجة للملك الاشوري «شمشي أدد» الخامس ، ٨٢٤ -٨١٠ ق . م ، توفي زوجها ، وكان أبنها ولي العهد «اددنيراري» مايزال صغيراً .. وقوة شخصية «سمَورامات» مكنتها من أستلام مقاليد الحكم ، وصيةً على أبنها . وأستمرت في الحكم مدة خمس سنوات ، حتى بلغ أبنها «اددنيراري» سن الرشد .

عملت سمَورامات في أثناء مدة حكمها مسلّة لتخليد ذكراها ، وأقامتها في ساحة المسلات ، في معبد آشور . وقد كشفت عن هذه المسلّة بعثة آثارية ، نقبت في موقع أشور .. وفي هذه المسلة جاءت هذه العبارات :

«مسلّة سمَورامات ، سيدة قصر شمسي أدد ملك العالم ، ملك بلاد آشور ، أم اددنيراري ، ملك العالم ، ملك بلاد آشور ، كنة شلمنصر ، ملك الجهات الاربع»

ويحدثنا الدكتور فوزي رشيد فيقول :

- النصوص المسمارية ، سواء كانت آشورية أم بابلية ، لاتحتوي أية معلومات أسطورية عن الملكة سمورامات ..

ولكن وردت معلومات تاريخية عن سمورامات ، غير أنها وردت ضمن الكتابات اليونانية التي حوّلت أسمها إلى سميراميس .. فقد ذكرها المؤرخ الشهير اليوناني «هيرودوتس» في حديثه عن مدينة بابل ..

أما سمير أميس الأسطورة فقد ذكرها المؤرخ ديودوس الصقلي ..»

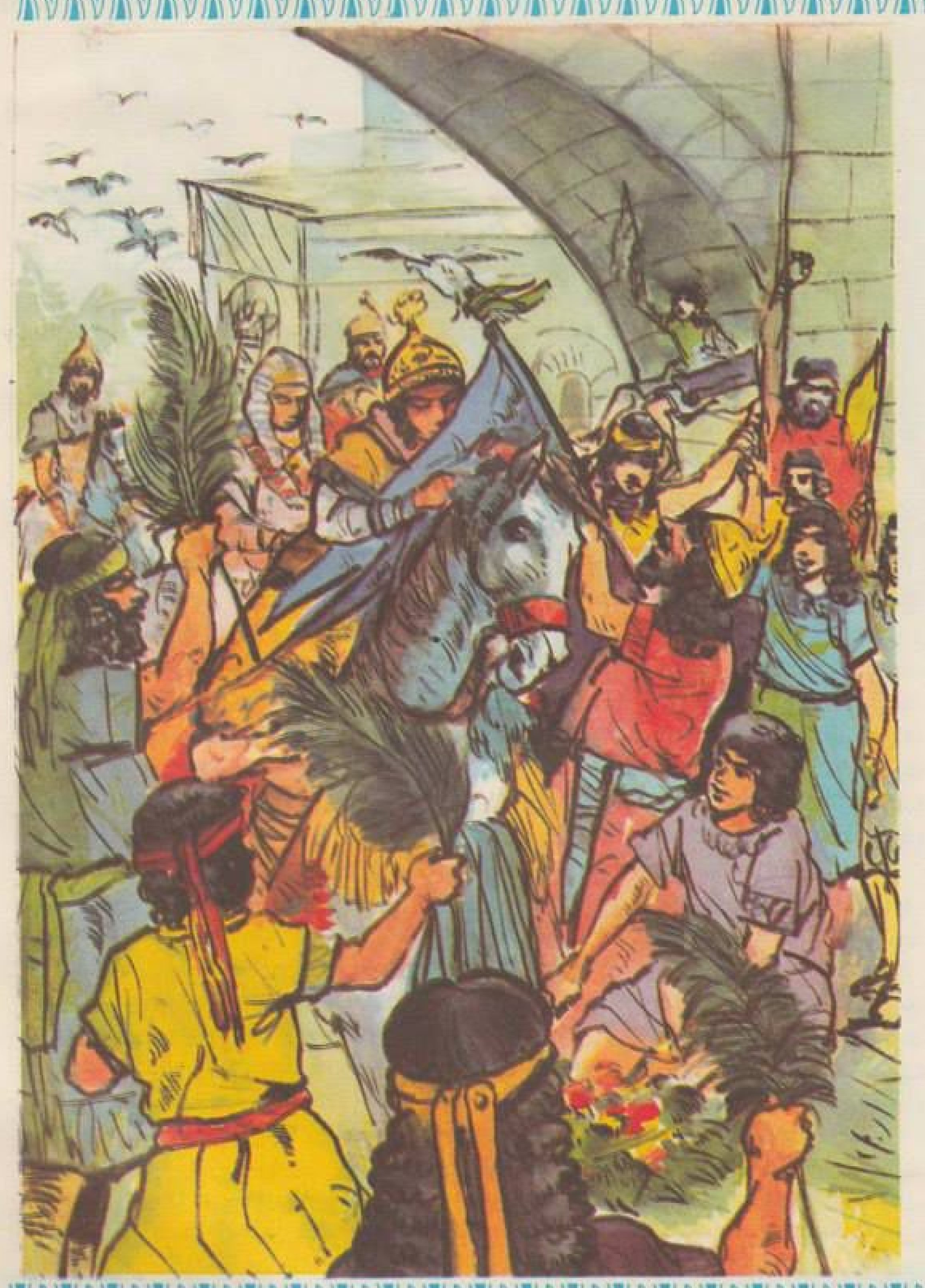
والآن ياأصدقائي الطيبين :

أظن أن هذا يكفي .. لقد عرفنا الحقيقة والآن لنبدأ بقراءة الأسطورة الرائعة ، كما كتبها الاستاذ عبد التواب يوسف ..

إذن هيّا إلى الأسطورة الحقيقة ، أو الحقيقة التي صارت أسطورة .. أتمنى لكم رحلة ممتعة في عالم سميراميس الرائع ..

صلاح محمد علي





- ١ -

البداية

هذه حكاية المرأة الحقيقية «محبوبة الحمام» التي صارت أسطورة ! وبرغم غرابة الأسطورة وجمالها ، فحقيقتها كانت أجمل . الايكفي انها من بلاد آشور العظيمة ؟ فلتقرأ الحكاية التي صارت اجمل الأساطير : حكاية «سمورامات» أو كما تسميها الأسطورة «سميراميس» ..

تقول الحكاية : إنها وليدة جميلة ، لها أم وأب من آشور .. وقد هاجمهما اللصوص وقطّاع الطرق عند البئر ، وتحت الشجرة ،

فاضطرا لان يهربا ، وكل منهما يتصور أن الصغيرة مع الآخر ، في حين كانت وحيدة في جوف الصحراء ، وقد ارتفعت صرخاتها باكية ، مولولة ! ترى كيف يمكنها أن تعيش ؟ كيف تحصل على طعامها وشرابها ؟ من يحميها من الطبيعة القاسية والاخطار ؟ ! كانت الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، تحوم وترفرف هنا وهناك ، ولمحت بطرف عينيها تلك الصغيرة الباكية ، وربما سمعت صرخاتها العالية ، وهي تقترب منها ، وقد تكون دموعها وصيحاتها قد هزّت الحمامة فانطلقت إلى رفيقاتها ورفاقها تستدعيهم وتسالهم أن يأتوا لكي يروا هذه الوليدة الجميلة .. وقدم سرب كامل من الحمام يطير ويرفرف ، وراح يدور من حولها ، ثم يحط فوق اغصان الشجرة التي تظلها ، ويرتفع الهديل ، والصغيرة لاتبالي بما يجري حولها ، فالجوع يوجع معدتها الخاوية ، وهي ، تريد طعاماً وشراباً وحنانا .. كان الحمام في دهشة شديدة ، فانه لايترك وليده وحيداً بعد أن يخرج من البيضة ، بل يظل إلى جانبه يرعاه ، ويحميه ، ويطعمه .. هذا ما يفعله الحمام ، فما بال الإنسان ـ صاحب العقل واللسان ـ يترك وليدة وحيدة ، تحت الشجرة ، بلا رعاية أو حماية ؟ من يضع لها اللبن في ثغرها كما تفعل أم الحمام وأبوه لفراخهما كانت «محبوبة الحمام» أو سميراميس ترقد عاجزة .. لذلك طار الحمام هنا وهناك بحثا عن شيء يطعمه إياها ، وارتفعت الحمامة البيضاء الناصعة البياض إلى فوق ، وعلت في الفضاء عن ورفقائها والحزن يملأ قلبها الصغير ، ومن خلال دموعها لمحت مضارب خيام البدو ، وكانت النساء في تلك اللحظة يقمن بجلب الأغنام ، فسارعت الحمامة إلى رفيقاتها ، وراحت تهدل ، ثم انطلقت ، وهم من ورائها ، إلى أوعية اللبن الحليب .. وقف الحمام يرفرف ، في صف طويل ، وراحت كل حمامة تلتقط من الوعاء قطرة لبن ، تبقيها في منقارها الصغير ، وتمضي بها إلى حيث ترقد الوليدة ، وتضع منقارها في فم الصغيرة ترضعها قطرة الحليب ، وتطير لتاتي من بعدها حمامة أخرى ، وهكذا .. كفّت الوليدة عن البكاء ، في حين كان سرب الحمام يروح ويغدو واحدة بعد الأخرى .. وتبتسم «سميراميس» وترنو بعينيها إلى السماء ، تشكر لها أن بعثت إليها بهذا الحمام الحنون .. ويكفّ هذا عن نوحه ، ويهدل جذلاً فرحا ..

ظل الحمام يقوم بارضاع الوليدة الصغيرة من دون ملل أو كلل وكان يشعر بسعادة غامرة ، وهو يؤدي هذه المهمة الجليلة ، التي اوكلها له القدر ، وقد حدث ـ ذات يوم ـ ان شهد الحمام ثعباناً يزحف تجاه «سميراميس» الصغيرة ، وشعر الحمام بذعر شديد فهو يخشى الثعبان كالموت ، وهو إذا لم يبتلعه طعاماً لدغه ليسري السم في جسمه إلى ان يقتله .. وعندما اقترب الثعبان من الصغيرة لم يكن هناك وقت للتفكير ، إذ انقضّ الحمام طائراً كالسهم ، وراح ينقر



الثعبان في راسه حتى تركه جثةً هامدة ، بجوار «سميراميس» التي كانت تناغي في فرح وبهجة كانها تدرك حقيقة ما حدث ، ثم راحت في نوم عميق ! كان الحمام يضيق ببكاء الوليدة الصغيرة ، لكن ما إن تسكت وتستغرق في النوم حتى يصير اكثر ضيقاً وقلقاً ويروح يحوم ويرفرف قريباً منها ، ومع النوم يقترب منها اكثر ، بل إنه يلتصق بها ليلاً ، ليدفئها ، بديلاً عن الثياب والغطاء ..

من هدى الحمام ليطعم «سميراميس» ؟ من دفعه لأن يحميها من الثعبان ؟ من جعله يلتف من حولها ويلتصق بها ليدفئها ؟ .. ترى ، إلى متى استمر هذا ؟ وكم بقيت الصغيرة رضيعة للحمام ؟ .. وهل يمكن أن يبقى ذلك الوضع طويلاً ؟

أسئلة كثيرة ، لا نعرف كيف نجيب عليها .. لكنَّ المهم ان الحمام كان لابد ان يبلغ الناس في أشور بهذه الوليدة الصغيرة ، فهو لايستطيع ان يتحمل مسؤوليتها طويلاً ، فهيَ بحاجة إلى أشياء كثيرة غير الطعام والنوم .. والجو بارد ليلاً .. ولابد للصغيرة من ان تكون نظيفة .. ولا قدرة له على كل ذلك .. ماأكثر مايحتاجه الصغير في طفولته المبكرة ، وما اكثر ما تؤديه الام ، والأب ايضاً ..

تشاور الحمام فيما بينه ، وارتفع هديله ، حتى وصل إلى حل واختار لها من يرعاها ، وكان عليه وهو حامل الرسائل ان ينقل رسالة منه شخصياً إلى من اختار .. ترى كيف السبيل الى هذا ؟ .. تقول حكمة الصحراء إن الحيوان قد يموت عطشاً وهو يحمل قربة الماء .. كان لابد للحمام ان يفكر ..

- ٢ -

«الصبية»

نظر الطفل الصغير إلى الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، وهي تهبط بالقرب منه ، وراحت هي تهز براسها وتشير ، والصغير في دهشة لها ، فخطا نحوها فلم تبتعد كثيراً ، ووسّع من خطواته ، فمضت اسرع قليلاً ، كانما تقول له :

- اتبعني ..

وفهمها الطفل ، واقتفى اثرها والسرب معهما ، وعندما لمح الطفل تلك الوليدة الصغيرة راقدة تحت الشجرة ظهرت على وجهه علامات الدهشة ، واقترب منها في خطوات وئيدة ، وانحنى عليها في ذهول .. ثم اطلق ساقيه عائداً إلى البيت ليبلغ أهله بالأمر .. لم يصدقوه في البداية ، لكنهم مضوا معه لكي يحملوا «سميراميس» إلى الدار ، وهم يعدّونها هدية من السماء ، ويحتفلون بها احتفالاً كبيراً كيف عاشت وحيدة في هذه الصحراء ؟ كيف وجدت طعامها وشرابها ؟ من حماها ورعاها ؟ وقد زاد من دهشتهم ان شاهدوا بجانبها ذلك الثعبان الصريع ، وتصوروا انها خنقته بيديها ، وانها بذلك صنعت معجزة ..

ومن هنا تناقلوا عنها الف حكاية وحكاية : وكان كل واحد منهم يضيف لكل حكاية عبارة او جملة او كلمة ، وإذا بنا امام فيض لاينتهي من الروايات والأخبار .. هناك من قال : إنها كانت ترضع ضوء الشمس ، ومن إنها خرجت من بيضة حمامة .. وقد اضفت عليها كل هذه الحكايات هالة من السحر والاعجاب لذا رعوا الوليدة الصغيرة ، وافردوا لها جناحاً فسيحاً في دارهم ، واحضروا لها المرضعات ، ورعوها رعاية خاصة ، ومنحوها ذلك الأسم الجميل المثير «محبوبة الحمام» الذي عرفته كل الدنيا فيما بعد : «سميراميس» . ونمت الصغيرة الجميلة ، الذكية ، المرحة .. وبدات تضع اقدامها على الأرض ، وراحت مع كل خطوة تخطوها يحكون عنها حكاية .. إنها تنطلق في الساحات الواسعة حول الدار ، تجري فتسبق قريناتها واقرانها ، ولا يستطيعون اللحاق بها .. إنها نشطة ، تكبر باسرع مما يتوقعون ، وتاتي من الأشياء بما يتجاوز سنها ، وتقول كلمات أكبر من عمرها .. خاصة فيما يتعلق باحلامها التي تراها في اثناء نومها وفي غضون يقظتها .. إنها دائما حالمة .. والكل يتناقل عنها تلك الاحلام ويروونها ضاحكين ، غير ساخرين ، ويحاولون ان يفهموها ..

- حلمت بالأمس اني ابني قصوراً عالية في الفضاء ..

- لا لا .. لاتبني ياآبنتي قصوراً في الهواء !

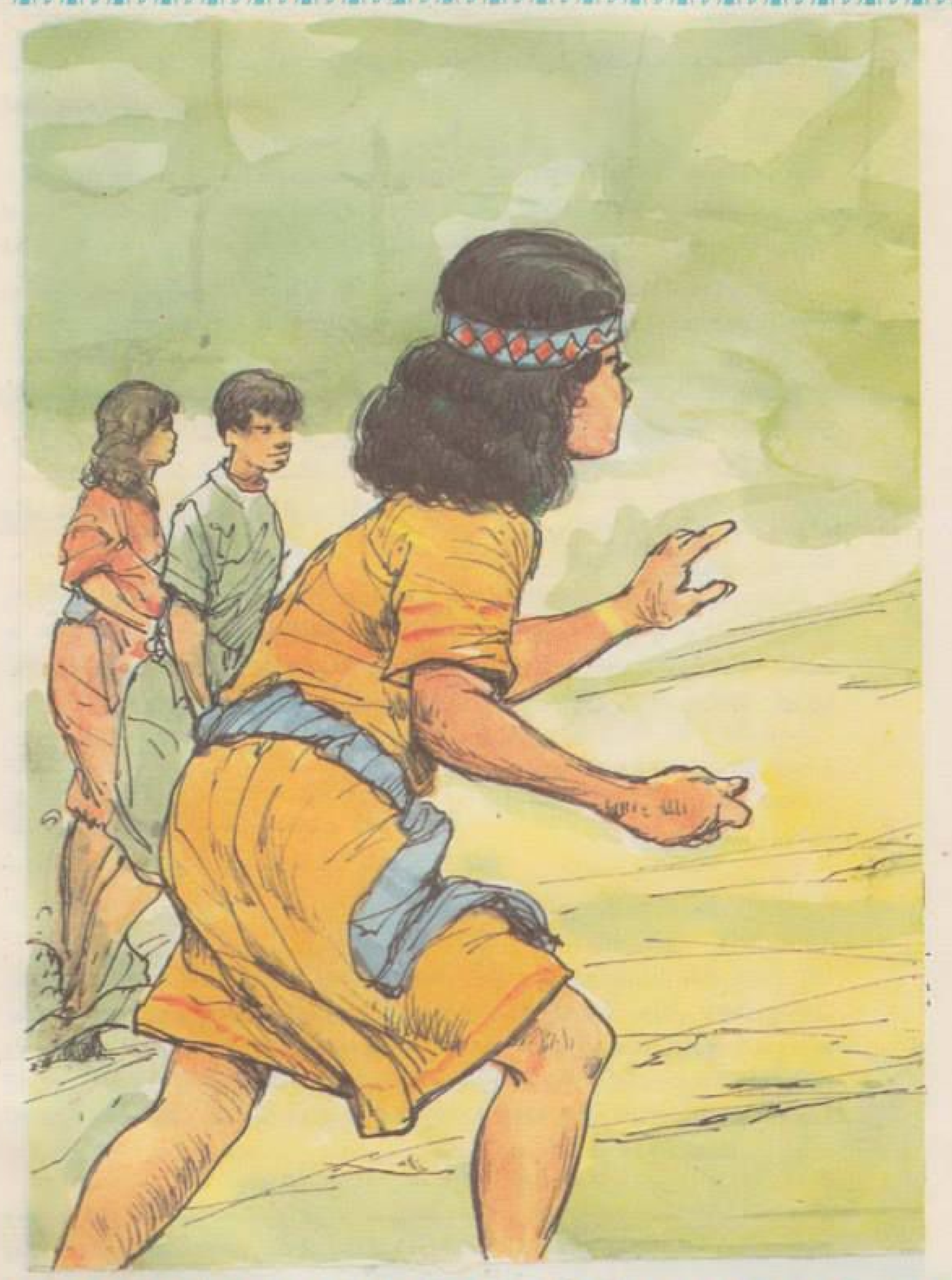
- إذا لم يكن لها اساس عميق وهندسة سليمة !

- ولكن لماذا تختلف احلامها عن احلام رفيقاتها ؟

- رأيتك ياعماه في حلمي ..

- ماذا كنت افعل ؟

- الم تكن معي ؟ فانت تعرف ماكنت تفعل .. رحت تحاول أن تجلسني على مقعد كبير .. كبير .. كبير ..



- وهل نجحت ؟ !
- طبعا .. وحاول البعض ان ينزلوني من عليه لكنني تشبثت به ، وظللت فيه لا احد يقدر على أن يصلني !

ويضحك العم ، ويبتسم احيانا وينصح الصغيرة الا تاكل طعاماً ثقيلاً قبل النوم ، وهي تؤكد له انه لا علاقة لأحلامها بالطعام والشراب ، وانها تستقبل احلامها في ابتهاج ، وتعترف له انها تحب احلامها ، وانها إذا لم تاتها ليلاً تجلس إلى نفسها نهاراً لتسرح ، وتصنع بنفسها احلامها ..

- لكن ، ياعماه ، أليس غريبا أن احلامي ليست ملونة ؟
- ماذا تعنين «ياسميرأميس» ؟
- أراها بيضاء ،كالحمامة .. او سوداء كالظلام ..
- وأي شيء في هذا ؟
- ليست هكذا الدنيا والحياة .. الزرع اخضر ، الشمس صفراء ، الدم احمر ، والسماء زرقاء .. لماذا لا أرى الالوان في أحلامي
- لست أدري .. لماذا تسالينني اسئلة لاقدرة لي على إجابتها ؟
- لأني أريد أن «أعرف» الكثير !
- سوف اذهب لأسال لك كبير امناء مكتبة آشور
- هل يعرف كل شيء ؟ !
- مامن احد يعرف كل شيء .. هو يعرف اكثر من غيره ، لأنه يقرأ ، ويكتب . اللغة لآشورية بالخط المسماري
- ولماذا لااقرأ انا كذلك ، واكتب ؟
- لم نتعود أن تفعل الفتيات ذلك !
- تعوّدوا .. ثم انني أريد أن اتعلم وافهم
- صدقت ..

وينصرف الرجل عنها وقد ازداد إعجابا بها وتقديراً لها .. شيء واحد كان يقلقه عليها : إنها تستيقظ ليلاً ، وتروح تصدر نغما يقترب من هديل الحمام : صوتاً رقيقاً ، عذباً ، ناعماً ، هادئاً .. ولم تكن مع الصباح تتذكر هذا ، لكنها فقط تحكي عن أحلامها الواسعة العريضة .. ويأتي العرّافون ومفسرو الأحلام ، وكل منهم يقول شيئاً مختلفاً عن الآخر ، لكنهم يجمعون على ان هذه الصغيرة سوف يكون لها شان ، واي شان ! وكانت تسمعهم عبارة تتردد دوماً على لسانها :
- وماذا بعد ؟ !

لكن الأسرة التي تستضيفها تريد ان توفر عليها ذلك ، لكن الصغيرة تابى دائما إلاّ ان تثبت وجودها ، ثم انها تصرُّ باستمرار على ان تستخدم عقلها ، وتدلي برأيها .. حتى إنهارات تبكي وتضرب الأرض بقدميها من اجل ان يسمحوا لها برعي الغنم وهي في الخامسة ، من عمرها !

- ٣ -

(الراعية)

خرجت الراعية الصغيرة مع الأغنام .. واعطاها ذلك مزيداً من الفرص من اجل مزيد من الأحلام ، وهي تجلس تحت شجرة او نخلة ، تتطلع بعينيها الى اغنام بذهنها : سارحة ، حالمة ، بعيداً .. وقد بدات تخفي بعض احلامها عن الأسرة التي اعدتها واحدةً منها ، وهي لاتدري السر في رغبتها في إلابقاء على بعض الاحلام لنفسها .. ماذا كانت تخشى ؟ ! قد تكون قد بدات تدرك أنَّ احلامها تجعلها «مختلفة» عن الباقيات ، وهي لاترغب في ان تبدو كذلك ..

- عقَّب البعض لدى سماعة بعض احلامها :

- احلامك عريضة ، ياسميراميس ..

وترد سميراميس : - ولكنني لست بمريضة .. نعم ، أحلامي عريضة ، بل أعرض مما تتخيلون ، واوسع مما تتصورون ، ولابُدَ لي فيها ..

وكانت - برغم ذلك - بعض احلام الراعية قاسية مرعبة .. إنها قد ترى ذئباً يهاجم اغنامها ، او ثعباناً يتلوى ناحيتها ، والغريب انها كانت دوماً تتجاسر على محاربتها ، ولاتخاف او تتراجع ، بل تقابلها في بسالة ، وكثيراً مانجحت في ان تصرعها قبل ان تصحو من نومها .. وهي مع هذه الاحلام تصحو متعبة مرهقة ، تعلو الصفرة وجهها الهادىء ، العذب ، الحلو ..

اما في يقظتها فهي تشارك ابناء الحي في رعي الغنم ، لاتتخلف عن الركب ، وتمسك دائما بعصا صغيرة تختارها من فروع الشجر ، تزينها بضع أوراق خضر ترفعها في قبضتها منتصبة مستقيمة ، حتى في أثناء جلوسها فوق الرابية العالية تطالع الأغنام وتنظر حالمة إلى الافق البعيد ، متساءلة :

- ماذا وراءه ؟ وماذا بعده ؟ !

وعلى الرغم مما أشتهرت به من السرحان ، إلا أن عينيها لاتغفلان عن حراسة اغنامها ، وقد حدث يوماً أن جاء الذئب - في الواقع لا في الحلم - وهرب الرعاة ، وتفرقوا كل إلى ناحية ، وثبتت هي ، ومضت وحدها تجاهه في يدها عصاها ، وهاجمت بها الذئب واستطاعت بضربة واحدة ان تجعله يقع مضرجاً بدمائه ، ولم يقدر بعدها على أن يرفع راسه .. وزعم الرعاة الصغار ان حمامات نزلت قبل ذلك لتنقرعين الذئب قبل أن تجهز هي عليه ، وعندما عادوا ليجدوه صريعاً عادوا إلى البلدة ، وهم يحتفون بها ويهللون ، ويترنمون باسمها ويهتفون :

- سميرأميس .. سميرأميس ..



كان ذلك الهتاف أجمل ماسمعته في حياتها ، منذ وعت وقد أحبته كثيراً وتمنته ، وحلمت به لكن عندما تحقق كان وقعه أروع وأجمل .. وظل يتردد في أذنيها خصوصاً إذا كانت وحدها تحت الشجرة في اثناء رعي الغنم ، وحين تعهد الاسرة إلى سميراميس بأن ترعى الحصان ، تشعر بفرحة غامرة ، ولا يفوتها ابداً أن تعتلي صهوته ، وأن تتدرب على ركوبه ، وكانت قدرتها على ترويض الخيل كبيرة ، ومهما جمح بها كانت قادرة على كبح جماحه والإمساك بلجامه بقوة ، فلم تقع مرةً واحدةً من فوق ظهره .. ولم تكن الفتيات يفعلن هذا ، وكانت هي تقابل بدهشة من الفتيان والحصان ينطلق بها راكضاً ، وهي ملتصقة به ، وكأنَّها قطعة منه .. ولم يكن هناك اطرف من منظرها وهي تستعير سيفاً خشبياً تبارز به اقرانها من الفتيان ، وتنجح في طعنهم به ، بل قد يقع واحد منهم من فوق حصانه في أثناء ذلك في حين هي ثابتةٌ لاتهتز .. والرعاة الصغار يعزون كل نجاحها وتفوقها إلى : الحمام ، فقد رأوه دائما يحلق من فوقها ، ويتبعها اينما تسير ، فما من مرة مضت بقطيع الأغنام إلا وكانت هناك اكثر من حمامة ترفرف ، وتظللها ..

وهي لاتنسى ذلك اليوم الذي دعتها فيه أسرة صديقة لتناول طعام الغذاء ، وشهدت على المائدة بضع حمامات ، واذهلها ذلك ، فما تصورت ان الناس يذبحونه ويأكلونه ، وقد عافت نفسها الطعام ولم تمد يدها إليه ، ومنذ ذلك الحين والاسرة التي تستضيفها تحرم صيد الحمام وذبحه ، بل كانت تتركه يلتقط الحبوب من حقولها الواسعة .. وتمد سميراميس يدها بقطع صغيرة من الحلوى للحمام الحبيب ، وتضحك رفيقاتها لانها تحرم نفسها منها لكي تعطيه إياها !

الحمام يذهب معها حين بدأت تتردد على واحد من علماء آشور يعلمها كيف تكتب بالخط المسماري على رقم الطين ، إذ تاقت نفس سميراميس إلى ان تتعلم الكتابة والقراءة من اجل ان تعرف أكثر ، لأنها مازالت تذكر ذلك اليوم الذي قال لها فيه رب الاسرة إن كبير أمناء المكتبة يعرف الكثير لأنَّه قرأ الكثير ! واستطاعت هي في مدة وجيزة أن تسبق اقرانها من الصبيان ، إذ كانت الفتاة الوحيدة التي سعت إلى التعليم .. هي دائماً «مختلفة» عن الاخريات ، وهي لاتحب ذلك ، لكنه لم يضايقها في شيء ، إذ احترمتها رفيقاتها ، وبادلتهن الاحترام ، وعاشت بينهن في ودٍ ومن دون خلاف .. وإن كان واضحاً تفوقها عليهن ، وسبقها لهن !

وكانت أسعد لحظاتها تلك التي تقضيها قرب برج الحمام ، يأتيها ليشاركها الجلسة ، وكثيرا مايحاول أن يعطلها عن كتابة دروسها على رقم الطين ، لكنها كانت مصرة على ان تتعلم ، وكانت شديدة الدأب في مراجعة دروسها ، فهي تتحدث إلى الحمام وكأنه يفهمها وتفهمه ، وهي تحبه من كل قلبها ، خصوصاًبعد أن جاءتها تلك الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، لتضع فوق رأسها تاجاًمن الزهور في واحد من أحلامها ، وقد طارت سميراميس من ورائها تسألها معنى هذا الذي فعلته ، لكن الحمامة طارت و اختفت .. ترى هل تجد لديه الآن شرحاً وتفسيرا ؟ ! إنه يهز رأسه ، كأنما يقول لها : لاتتعجلي .. غداً تعرفين كل شيء !

كانت «سميراميس» وهي صغيرة تحلم بان تصبح كبيرة ، وعندما ترى ظلها طويلاً امامها تطارده ، وتجري وراءه ، ولا تلحق به ، لكنها تهتف قائلة :

- أريد أن أصبح طويلة مثل ظلي !

وعندما كبرت قليلاً كفت عن هذا الحلم ، الذي راح يتحقق رويداً رويداً ، وشغلها عنه الحمام ورعي الغنم ، وركوب الخيل ..

وكبرت ، لتصبح فتاة فاتنة ، حالمة تخطو على الأرض فلا تكاد اقدامها تلامسها من فرط الرقة ، وتخطر بين الحمائم فتظنها واحدة منها ، وذات صباح ، خرجت من الدار كعادتها ، صبيحة الوجه ، مشرقة ، واقبل عليها الحمام ، يحوم ويجيء ، وعند ذلك شاعت البسمة في قسماتها ، ومضت في هدوء بضع خطوات وهو يجتذب كل التفاتها ، وفجاةً سمعت بعض اصوات من صبية يلعبون ، ويتصارخون وفي يد كل منهم ، مصائد يطلقون بها أحجارهم تجاه الحمام ، فتصيب حصاة راس واحد منه فتدور ، وتسقط صاحبتها صريعة ، واخرى تضرب بالجناح فينكسر ويقع صاحبه على الأرض يكاد يلفظ الأنفاس .. وتلاشت الابتسامة من على وجه «سميراميس» وصرخت فيهم :

- يالقسوتكم !

وانطلقت سميراميس تطارد الصبية ، وتفرقوا هنا وهناك ، فاقتفت اثر اكبرهم الذي توسمت فيه أن يكون هو الذي اغراهم بطيرها الوديع ، وعندما نجحت في اللحاق به لم تكن قاسية معه مثل قسوته مع الحمام ، بل عاتبته برقة ، الأمر الذي جعله يطرق خجلاً .. ولم تتنبه «سميراميس» إلى انها قد بعدت كثيرا عن دارها إلا حين أخلت الصبي من بين يديها وتطلعت إلى ما حولها ، واذا بها تجد نفسها وسط الرمال ، إذ انساها غضبها المسافة الطويلة التي قطعتها وصولا للصبي ..

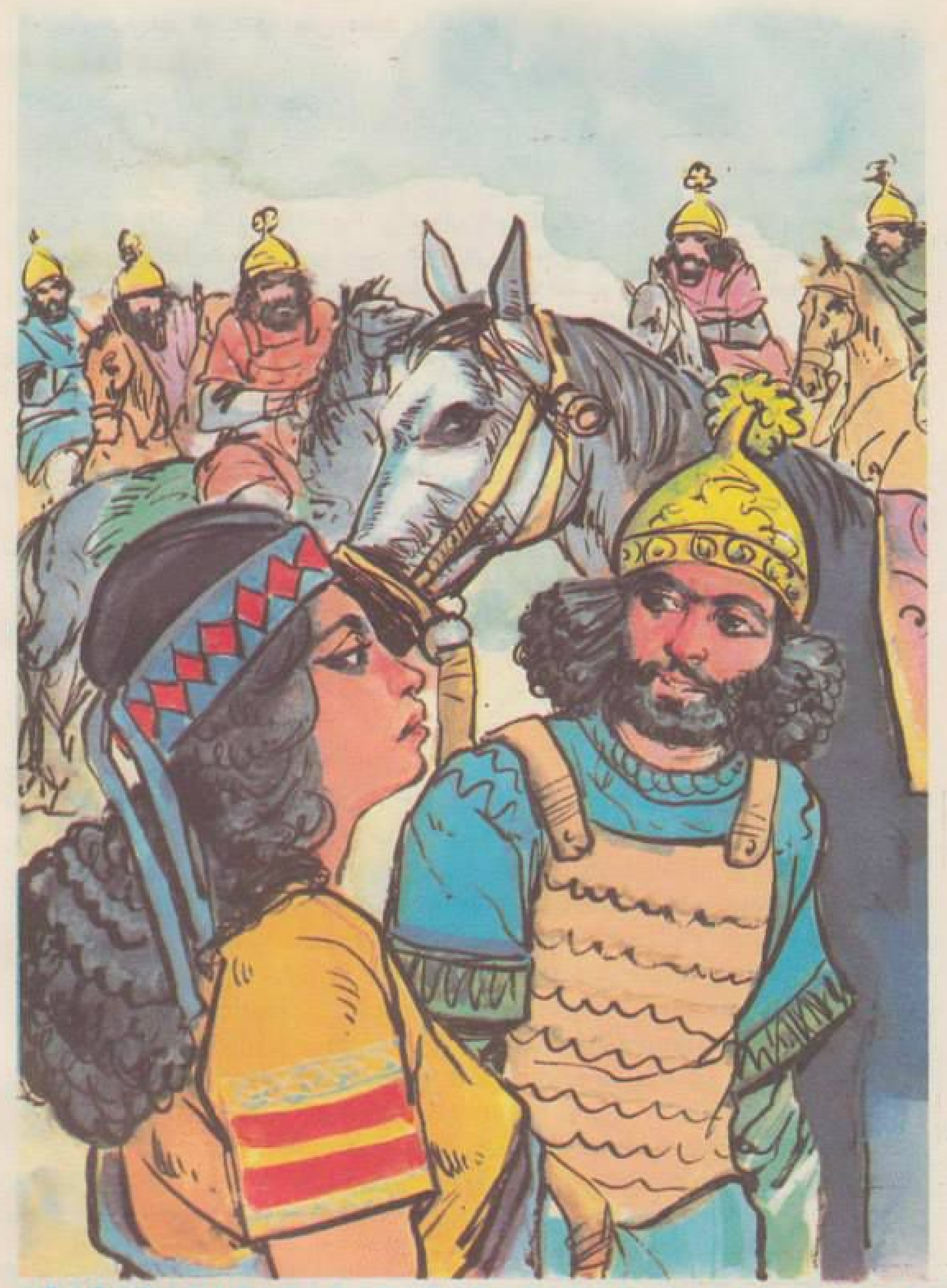
تنهدت ، وبدأت تاخذ طريقها للعودة ، وفجاة تكاثف الغبار ، تحت أقدام عدد من راكبي الخيل من جيش آشور ، فرفعت يديها تحمي وجهها من التراب المتطاير وراحت بين الحين والآخر تحاول أن تنظر من بين جفنيها المسدلين لترى إذا ماكانت كوكبة الفرسان قد مضت ، وكانت أصوات وقع اقدامها تتباعد وعندما هدأت وفتحت سميراميس عينيها وجدت فارساًقد ترجل من فوق حصانه ، ووقف قبالتها ينظر إليها في رقة واعجاب ولكنه صاح في صوت خشن قوي يامر الجند أن يتوقفوا وأن يضربوا خيامهم في هذه المنطقة .. وكانت هذه اللحظات كافية لكي تجعل «سميراميس» تعود إلى نفسها ، وتنفض عنها الغبار المثار ، استعداداً للسير راجعة إلى بيتها .. لكن الفارس الشاب اعترضها وهو يقول في عذوبة :

- لقد بَعُدْت عن بيتك ..

ردت عليه : لاتقلق علي .. انا كالحمامة تعرف طريق عشها مهما بعدت عنه ..

- وأين عشك أيتها الحمامة ؟

- قريب من هنا



- وما رايك في .. في عش بعيد نوعا ما ؟
- ماذا تعني ؟
- عش في سوريا ، مثلا ؟
- أي شيء تقصد ؟
- من أبوك لأخطبك إليه

سكتت الفتاة ، فقد شلتها المفاجاة ، والسؤال الذي لاتدري له جواباً .. لقد سالته لنفسها ولمن حولها مئات المرات ولم تحظ بردٍ عليه .. لكنها هربت منه في هذه اللحظة لتتذكر حلماً طاف بها منذ ايام .. لقد رات نفسها على صهوة حصان ، يركض بها كالسهم ، وراحت تنكمش فوق السرج ، وتصغر وتصغر ، إلى ان تحولت إلى حمامة بيضاء ، ناصعة البياض ، ولم تعد خائفة من السقوط ، لكنها ايضا لم تكن قادرة على الطيران .. وفجاة ظهر فارس شاب على حصان ابيض ، طاردها ، ولحق بها ، ووضع يده عليها ، واحتضنها بين اصابعه ، في ذات اللحظة التي امتدت فيها يد ماتوقظها من حلمها ، وتحكي له مارات ، فيقول لها ساخراً :

- أنت تريدين أن تتزوجي فارساً !

ترد في ثقة : وهل ترون في ذلك عيباً ؟ !
يتردد لحظة ، ويقول : احلامك واسعة ، وعريضة ..
ومرة أخرى تستيقظ «سميراميس» من غيبتها عما حولها حين ارتفع صوت الفارس من جديد ، يكرر السؤال :

- من أبوك لأخطبك اليه ؟
- من قبيلة في هذا الحي ..
- خذيني إليها !

ويقتفي الفارس اثرها ، ويمضي من ورائها ، والأفكار تلهث في راسه
ووصلا الى القبيلة ويذهل الفارس الشاب ، ويروح يستقصي قصتها ، ويسال عنها وعن خلقها وذكائها فيمتد حونها ، ويتغنون بها ، ولا يجدون فيها عيباً .. وينبهونه إلى أن احلامها واسعة وطموحاتها كبيرة ، وبلا حدود ، وانهم لايدرون إلى أي مدى تذهب بها ، وهو يرى بزواجه منها يحقق لها الكثير مما يرضي احلامها و امالها وامانيها ، ويعلن انه يقبل الزواج منها برغم كل شيء !
كانت المفاجاة كبيرة : الفارس الشاب ضابط أشوري كبير ، وهو حاكم سوريا من قبل «نينوس» ملك أشور .. لكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يتقدم بطلب الزواج من «سميراميس» وكان أن اقيم حفل كبير ، دقت فيه الدفوف ، وغنى المطربون ، وأكل المدعوون وشربوا ورقصوا ، وشارك في ذلك جند القائد ، وقبيلة الفتاة ، وكانت تبدو على الجميع علامات الفرح والسرور ، فمن كان يتصور أن حلم سميراميس سيصبح حقيقة بهذه السرعة ، وبهذا الاسلوب ؟ ! إن بنات الحي يحسدنها على هذا الضابط الشاب ، الذي تتمناه كل منهن لنفسها .. لقد صارت سميراميس زوجة ، هل يرضي ذلك أحلامها ؟ كان السؤال الذي يراودها دائما ويرن في اذنيها : وماذا بعد ؟ !

- ٥ -
(الجندية)

تزوجت سميراميس من الضابط الشاب «اونيس» وبقيا معا بين «قومها» بضعة ايام ، قبل ان يبدأ الاستعداد للرحيل الى سوريا .. وكان هناك امر من الملك الا يصطحب الضباط والجنود النساء في ترحالهم وسفرهم .. ولقد نسي الشاب ذلك في غمار حماسته للزواج من هذه الحمامة الجميلة الوديعة ، وبات عليه ان يجد حلاً لهذه المشكلة .. وقد اقترح البعض ان يتركها حيث هي بعض الوقت ، ثم يعود بعد حين لكي يأخذها إلى بيته ، لكنه رفض ذلك ، فهولا يريد ان يفارقها ..

وعندما طرح المشكلة على «سميراميس» ابتسمت ، وكشفت عن موهبة كامنة ، وهي قدرتها على ان تبتكر الحلول ، وتبتدع سبل الخروج من المازق ، بايسر الوسائل ، واسهل الطرق ، مما اذهل زوجها ، وجعله يتطلع إليها في إعجاب شديد ..

قالت له : هل تعرف اني احسن ركوب الخيل ؟

- لا .. لكن ماعلاقة هذا بموضوعنا ؟

- عليك أن تعدَّ لي ملابس جندي ..

وفتح عينيه وقد اطلت منهما الدهشة ، إذ ادرك ماترمي إليه ، وفهم كيف يمكن ان تكون معه من دون ان يخالف اوامر الملك .. وبعد وقت قصير لبست سميراميس ثياب الجندية ، وقفزت إلى ظهر الحصان ، وقد وضعت خوذة فوق راسها ودرعا على صدرها ، وبذلك لم يعد هناك مايمكن ان يكشف عن شخصيتها ، ولم يتعرف عليها الجنود انفسهم ، خصوصاً وقد اعلن القائد انها الحارس الخاص به تفارقه ابداً ، بل هي دائما وراءه ومعه ، وبجانبه .

ومضت الفرقة في طريقها إلى سوريا ، ولم يعرف المحيطون بالضابط الشاب سر هذا الجندي الصامت ، الذي يلازم القائد مثل ظله .. وعندما حدثت بعض المناوشات على الطريق كان واضحا ان هذا الجندي شجاع ، ثابت ، وكانه خاض عشرات المعارك من قبل ، فقد ناوروداور وقاتل بسيفه ، وشارك في دحر المهاجمين ، الأمر الذي جعل الجنود يتساءلون عمن يكون ، لكن قرب وصولهم إلى مدينتهم شغلهم عن الحديث عما دار في المعركة ، وصرفهم عنها .

وعندما وصلوا تنبهت سميراميس أن الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، كانت معها طوال الطريق ، وانها ظلت ترفرف من فوقها من دون أن تلفت انظارها ، أو تتنبه لوجودها .. لذلك لوحت لها تحييها ، فنزلت الحمامة إليها وحطّت على كتفها ، ومسحت جناحها في خدها ، ولمس منقارها شفتي «سميراميس» المبتسمتين .. ولم يلحظ احد هذا الذي جرى ، سرعان ماعادت الحمامة إلى الفضاء ، تطير مرافقة الجند إلى ان دخلت سميراميس بيتها ، وساعتها حطت الحمامة على نافذة ، تلتقط انفاسها وتستريح بعد هذه الرحلة الطويلة المرهقة ..

وتطلعت سميراميس من النافذة ، واطلت على البحر الابيض .. كانت هذه اول مرة تشهد فيها بحراً .. هالتها المياه التي تمتد بعيداً إلى الافق ، وبلا حدود ومن غير شاطىء اخر مثل دجلة والفرات .. وراحت تحدق في البحر .. وماذا يخفي في اعماقه السحيقة ؟! واحست برغبة شديدة في ان تلقاه ، وتلقي بنفسها بين مياهه ، وتتحدث إليه ، وتستمع له ، وهمست لنفسها :



ـ سيتسع الوقت لكل هذا فيما بعد !

وكما تعودت سميراميس ان تجلس في ظل نخلة او شجرة تطالع الصحراء ورمالها ، بدات تنظر للبحر ومياهه ، لتحلم في يقظتها ، وبرفقتها حمامتها البيضاء ، الناصعة البياض التي لم تعد وحيدة ، فقد لحق بها سرب كامل ، قادم من بلاد اشور ليرعى الابنة والصديقة ، والحبيبة «سميراميس» .. وكم اسعدها قدومه ! ! وطابت لها الحياة في سوريا ، واحست انها قد بدأت تضع اقدامها على طريق تحقيق آمالها العريضة ، برغم انها ظلت تعيش حياة متقشفة ، كتلك التي كانت تعيشها في آشور ، واستمرت داخل اسوار حديقة القصر تمارس ركوب الخيل ، وتتدرب على المبارزة ، وفنون القتال ، وزوجها سعيد بتدريبها ، يريد أن يظهر امامها مهارته ، وقدرته ، وبراعته .. ووجد أن ذلك أهتمام مشترك بينهما يزيد ارتباطهما ، ويجعلها اكثر تعلقاً به ، فمضى يعلمها كيف تستعمل القوس والسهم ، وكيف تضرب بالرمح وكيف يصبح السيف العوبة في يدها .. وتجاوزت كل هذا ، إلى ما يمكن أن تفعل إذا لم يكن معها سلاح على الإطلاق ! .. إنها تتدرب على المصارعة ، وعلى إجادة الضرب باليدين والقدمين ، مستخدمة ذكاءها في الإيقاع بخصمها ، وهنا كانت تبز الجميع ، برغم ماهو معروف من ان ذلك حرفة الرجال ، لكنها لم تقتنع قط بان هناك فارقاً ، وكانت تتعامل وفق هذا في أمور الحياة كافة .. ترى ، بماذا كانت تحلم «سميراميس» في هذه المدة ؟

لقد كبرت معها احلامها ، واصبحت اكثر اتساعاً .. لقد صارت تحلم بالفيالق والجنود تقودهم ، تخفق من فوق رؤوسهم رايات الانتصار ، وهي تكتم تلك الأحلام حتى عن زوجها ، وإن افلتت منها بعض عبارات تشير الى امانيها ، الأمر الذي يضحك له الضابط الشاب ، فهو يتصور ان الامر لايزيد على ان يكون احلاماً وآمالاً ستبدد لدى خوض اول معركة حقيقية لكن «سميراميس» ظلت تحلم ليل نهار ، يعينها على ذلك وقت متسع تقضيه وحدها مع البحر ، أومع حمامها الوافد من آشور ، وكان زوجها الشاب يضطر للغياب لتفقد بعض المواقع ، والقلاع ، والثغور ، إذ حدود المملكة ممتدة ، الطامعون كثيرون ، ولابد من السهر والحرص على اطراف بعيدة تلقى هجمات بين حين وآخر ، لابد من ردها على اعقابها ، خصوصاً وهناك حدود مشتركة مع مصر ، وفراعنتها ينتهزون الفرصة للاغارة على البلدان القريبة لتحصيل الجزية ، وتسجيل الانتصارات على جدران المعابد ..

وذات صباح وردت من ملك آشور (نينوس) رسالة عاجلة مهمة .. إنه يامر الضابط الشاب (اونيس) حاكم سوريا ان يسارع بجيشه ، ليساعد في حصار مدينة (بكتريانا) ، وما كان الشاب راغباً في ترك موقعه ومكانه ، ولا كان يريد أن يشارك في هذه الحرب ، ولا هو يستطيع ان يفارق الحمامة البيضاء «سميراميس» فاطلعها على الأمر لعلها تجد سبيلاً لتفادي تنفيذ هذه الاوامر ، لكنها راحت تشجعه على الاستجابة ، لكي يحقق المزيد من الانتصارات والفتوحات ، وليرتقي ويكبر في عين الملك ، وعندما سالها :

ـ وماذا عنك ياسميراميس ؟

ـ انا جندية في جيشك ، معك اينما تذهب .. وكان أن أصطحبها معه ، والسؤال الدائم يتردد في رأسها :

ـ وماذا بعد ياسميراميس ؟ !

- ٦ - (المحاربة)

جيش اشور بقيادة الملك «نينوس» يشن الغارات واحدة بعد الأخرى ، لكنها تحبط عند الحصون المنيعة ، ويطول الحصار من دون جدوى .. وكانت قلعة المدينة تصيب المهاجمين إصابات مباشرة . لذلك أثر الملك ان يباعد ما بينه وما بينها ، وفضل أن يهاجم المدينة من عند السهل الواقع على النهر . وتلك اضعف نقاط دفاعها ، غير أن اقتحام المكان لم يكن سهلاً ولا ميسوراً ، فما من ثغرة هناك ، بعد أن تحول الجند لتحصين هذه البقعة ، ونجحوا في رد الهجمات المتوالية ، التي لم تستطع الوصول إلى اسوار المدينة .. وكان الضابط الشاب وزوجته ، سميراميس يشاركان في القتال مشاركة فعالة ، ولكنهما يعودانُ إلى خيمتهما مخذولين ، بلا امل في النصر ، برغم كل ما ابدياه من ضروب الشجاعة والجسارة .. وفي كل ليلة تاوي بسميراميس إلى فراشها الخشن وهي ترجو ان تاتيها الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، في احلامها لكي تهديها إلى السبيل لاقتحام هذه المدينة ، وطال الانتظار .. لكن ذات ليلة قمرية رات سميراميس ـ فيما يرى النائم ـ الحمامة البيضاء ، قادمة ترفرف من ناحية القلعة ، وعادت من حيث اتت من دون ان تصيبها سهام المدافعين التي تناثرت من حولها .. وعندما صحت سميراميس من نومها ادركت ما تريد الحمامة ان تقوله !

تسللت سميراميس من فراشها ، وتركت زوجها ياخذ قسطه من الراحة ، ومضت الى أرض المعركة ، تجوس خلالها ، وعلى ضوء القمر سارت تجاه القلعة ، وتطلعت إليها ، وإذا بالحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، ترفرف فوق جانب من جوانب السور الضخم ، وتروح وتغدو عند هذه البقعة ، وراحت «سميراميس» ترقبها في انتباه شديد ، ثم القت بنظرةٍ على الطريق الموصلة لهذا المكان ، وقد تناثرت فيها قطع كبيرة من الاحجار ، وكان واضحاً من الهدوء الذي يسود القلعة ان حراسها قليلون ، ويبدو أن ضباطها وجنودها قد غادروها ليحرسوا النقاط الضعيفة عند السهل المنخفض .. وقضت سميراميس وقتاً طويلاً وهي تدرس الموقف ، قبل أن تعود إلى خيمتها لتجد زوجها قد بدأ يستيقظ من نومه ، ويتقلب في فراشه في قلق ، وقد احس بها عند رجوعها ، فسالها : اين كانت ؟ فروت له في إيجاز ماراته في حلمها ، واطلعته على ما كشفته خلال تجوالها قرب القلعة ، وطلبت إليه أن يمدها في اليوم التالي ببعض من جنود ممن يجيدون تسلق الصخور والأسوار ، لانها قررت أن تتسلل عبرها إلى داخل المدينة ! وكان الضابط الشاب يشعر تجاهها بالقلق ، ويخاف من أندفاعها وجسارتها و اقتحامها للمعارك من دون رويّة ، وفي عنف شديد ، وكم من مرة نبهها إلى ان تتانى وتهدأ وكم سالها الا تغامر بنفسها ، خصوصا وقد رصدها الاعداء وحاولوا اكثر من مرة أن يغتالوها باسهمهم ، بل نجحوا في تسديد سهم أصابها في كتفها وإن كان الجرح ـ من حسن حظها سطحياً وطفيفاً ، ولكنها لم تستمع إلى مثل هذه النصائح ، إذ كانت تود ان تؤكد شجاعتها واستبسالها ، وتتوق إلى تسجيل انتصاراتها .

وافق زوجها على طلبها بعد نقاش حادٍ بعض الشيء ، ومضت مع الجند قبل أن يظهر القمر في الليلة التالية ، وهي تقتفي اثر حمامتها البيضاء ، الناصعة البياض ، وبدات مغامرة رهيبة لو ان حراس القلعة وجنودها تنبهوا لها لأبادوها ومرافقيها ، غير انها راحت تتنقل من حجر إلى حجر في خفة وبراعة ، كانها قطة ، وكان الجنود يتحركون في صمت وهدوء شديدين ، وهم

متحمسون لمهمتهم حماسة منقطعة النظير ، وحرس القلعة القليلون يغطون في نومهم ، فما تصوروا قط ان احداً يخطر بباله ان يهاجم قلعتهم الحصينة ، وإذا ما فكر في ذلك فالأسوار عالية ، وهناك مجرى ماء لابد من عبوره ، ثم بعد كل ذلك تنتظر النبال والأقواس والأسهم أولئك القادمين لتقضي عليهم ، وإذا تجاسروا وتقدموا اكثر فان الحراب الطويلة ستمزقهم شر ممزق ، ومن بعدها سيوفهم الباترة ..

ظلت سميراميس وفرقتها ساعات طويلة يتحركون حتى وصلوا الى مجرى الماء ، واقاموا من فوقه جسراً من جذوع النخيل ، عبروه ثم راحوا يتسلقون الأسوار والحراس غافلون ، وكلابهم اكلت اللحم الذي القى به المهاجمون وبعد لحظات لقيت هذه الكلاب مصرعها .. وكان واضحاً أن سميراميس قد أعدت لكل شيء عدته ، ومع أول خيوط الفجر كانت قد أعتلت وزملاؤها أسوار القلعة وقفزوا إلى داخلها ، وأعملوا سيوفهم في الحراس ، حتى باتت القلعة في أيديهم .

واعطت البطلة الإشارة المتفق عليها إلى زوجها وجنوده وفتحت لهم الأبواب ليتدفقوا لفتح القلعة ، وبذلك امكن لهم السيطرة على المدينة ، وأصبحت مابين النيران التي تصبها عليهم القلعة ، والهجوم الساحق الذي يقوم به ملك آشور وقواته من ناحية السهل والنهر .. فاستسلمت المدينة ورفعت الأعلام البيض ، ودخلت القوات الآشورية تحمل رايات النصر ، وتعزف موسيقى الفتح المبين الذي تم بفضل سميراميس .

وعندما أستقر المقام بالملك في اكبر قاعات القلعة وجاءهُ قادة المدينة مستسلمين ، ينتظرون مصيرهم ، لم يهتم لهم كثيراً ، فقد كان يفكر في هؤلاء الأبطال الذين نجحوا في اقتحام القلعة ، وكان كل همه أن يعرف البطل الذي قادهم وتسلل بهم في هذه العملية الذكية الجسور فاستدعى الملك الضابط الشاب قائد الفرقة القادمة من سوريا ، والتي قامت طليعتها بأحتلال القلعة ، وفتح ابوابها أمام الباقين ..



- ٧ - (زوجة الملك)

غمر الملك «نينوس» البطلة المحاربة سميراميس بهداياه وعطاياه ، معبراً عن إعجابه وتقديره لدورها في فتح المدينة ، ورأت سميراميس ان في ذلك تشريفا لها ، ولزوجها وتعبيراً عن الرضاء السامي عنها

قال الملك للضابط :

- أريد أن استعرض هؤلاء الابطال ، واشد على يدهم ..
- هم يامولاي أدوا الواجب الذي عليهم لا اكثر !
- بل لابد لي من أن اشكرهم وأحييهم بنفسي ..

وقام الضابط الشاب بتنظيم الأبطال الذين اقتحموا القلعة في صف طويل ووضع سميراميس في نهاية الصف ، ثم جاء الملك يسير في خطوات وئيدة يسلم بيده على كل جندي ، إلى ان جاء دور سميراميس - وهي في ثياب الجند - وعندما صافحها أحس بنعومة يدها ، ورقتها ، برغم مافيها من قوة وصلابة ، فرفع بصره إليها ، وتملى في عينيها ، وحملق في وجهها ، وعندما بدا يوجه إليها الحديث ويدير معها الحوار تنبه لصوتها ، وأدرك انها «امراة» ، وقد أذهله الأمر ، فنظر إلى زوجها متسائلاً مستفسراً محققا ، ولم يكن أمام «اونيس» الا ان يعترف قائلاً :

- إنها زوجتي يامولاي !
- ماذا ؟ !
- نعم ، هي زوجتي «سميرأميس» !

كانت المفاجاة غير اعتيادية ، ورغب الملك الا يطول الموقف أمام صف الجنود ، الذين كانوا لايقلون عنه دهشة وذهولاً ، وقد صرفهم باشارة من يده ، ودعا الضابط الشاب وزوجته إلى طعام العشاء على مائدته في تلك الليلة وكان من الواضح أن سميراميس برغم تعبها ترحب بالقبول ، وأبدى زوجهاابتسامة ، رسمها على شفتيه ، وهو يتمتم بكلمات الشكر ، ويصطحب زوجته ، وينصرفان عن المكان في خطوات متعثرة .

وذات ليلة رات سميرأميس في أحلامها ان صقراً يهاجم عش حمام ، وأن الصقر ازاح ذكر الحمام ليقع من عالٍ ، واختطف الطائر القوي الحمامة القابعة في العش ، تنتظر في غير خوف اوقلق .. وعندما دققت النظر في هذه الحمامة وجدتها شبيهة بها .. واستيقظت في ذلك الصباح متعبة ، مرهقة ، فلم تجد زوجها في الدار .. ولم يعد حتى المساء .. وتناقل الناس خبراً وصل إلى مسامعها .. لقد مات الضابط الشاب .. كيف ؟ !خبر فاجع وسؤال مؤلم لم تجد الجواب على سؤالها إلاّ بدموعها ، إذ إنها لاتنسى له انه التقطها من الصحراء المجدبة ، فتاةً غريرة بسيطة ، ليصنع منها زوجة له ، وليجعلها تعيش في سوريا حياة طيبة ، كما انه عاونها على أن تصبح جندية شجاعة جسور ، وفتح أمامها الطريق لتقتحم القلعة وبذلك استسلمت المدينة ، وكان ذلك

هو السبيل الذي تعرفت به إلى الملك ..

وبعد زمن على انتهاء أيام الحداد أصبحت سميراميس زوجة للملك «نينوس» واقيمت الأفراح والليالي الملاح في كل آشور، وانتقلت سميراميس إلى القصر الملكي، الذي رفرفت من فوقه حماماتها، وبينهن الحمامة البيضاء، الناصعة البياض .. وشعر الملك بانه قد حقق حلماً من أحلام حياته بزواجه من هذه الفتاة الرائعة: الجمال، والذكاء، والشجاعة، وأحس أن العرش يليق بها، وأن جلوسها عليه إلى جواره امر طبيعي، تستحقه إزاء مواهبها المتعددة ..

ومما لاشك فيه أن سميراميس كانت فرحة مبتهجة، لكن الذين حولها كانوا يتوقعون ان تكون سعيدة إلى اقصى حد، لكن فرحتها وبهجتها كانت مشوبة بلون من السرحان، وكانت عيناها تحملقان إلى آفاق بعيدة، وتبدو حالمة بشيء ما، لا أحد يستطيع أن يدركه أو يتصوره ..



ويسالونها ان تفيق إلى نفسها ، فلا يحدث في كل يوم ان تتزوج فتاة من ملك البلاد ، وليست هذه لحظة الأحلام ، ربما تكون اقرب الى ساعة تحقيق الأحلام ، ويجدربها أن تحتفل بها ، إذ ما من فتاة إلا وطاف بها مثل هذا الأمل وربما همست انها ما حلمت بذلك ،

ـ وهي في هذا صادقة ـ لانها فيما يبدو حلمت بما هو اكثر من هذا ، وتضيف :

ـ من كان يتصور أن فتاة الصحراء الوحيدة ، رضيعة الحمام ، يمكن أن تجلس بجانب الملك على العرش ؟ !

ويضحكون .. ستعيشين في التبات والنبات ، وتخلفين ..

وتقاطعهم : ملايين النساء يتزوجن ، ويخلفن ، وينجبن !

ـ وماذا عنك أنت ؟ !

ـ لاادري .. انا سميراميس ، شيء آخر .. لست أراني سلعة ، تنتقل من يد حاكم ، إلى يد ملك ..

ـ بماذا تحلمين ؟

ـ نفضت عني احلام الليل ، وأحلام النهار .. الذي يضنيني كيف تتحقق الأحلام على أرض الواقع ..

الحياة الجديدة جميلة .. ربما تكون اجمل من الحلم بها .. السلطة والسلطان في يديها ، والملك لايدخر وسعاً لارضاء الحمامة الجميلة ، الذكية ، ولا يرفض لها طلباً ، ويحقق لها كل ماتريد ، وفوق ماتريد .. ومما لاشك أن سميراميس قد بدأت تستثمر ذكاءها الفذ ، وبدأ الناس يشعرون بذلك ، وهم يدركون انها وراء ذلك التغيير ، فاعمال البناء تقوم على قدم وساق ، وأخبار الانتصارات والفتوحات تتوالى ، فالمملكة واسعة ، والذين يحاولون أن ينقضوا على اطرافها كثيرون ، وما من سبيل للمحافظة عليها إلا بالقوة ..

وكان الذين يرقبون سميراميس يرون انها تتغير كثيرا عما في الماضي ، مازالت تسرح طويلاً ، والاحلام تواتيها ليلاً ، وهي تصحو مع كل صباح على حلم جديد ، وكان المُتصوَّر انها قد حققت كل احلامها ، وانها قد حققت الآفاق التي طمحت إليها ، لكن مايجري تحت سمعهم وبصرهم يؤكد انها مازالت تحلم بالكثير ، ولابد أن البعض قد تجاسر همساً وسالها في رقة :

ـ هل مازلتِ تحلمين بالحمام ؟ هل تزورك في أثناء نومك ؟

وتضحك سميراميس ، وتتهرب من الإجابة خصوصا إذا ما كان الملك (نينوس) قريباً منها ، فهي أمامه تبدو يقظة سعيدة ، ولا تحكي قط عن الأحلام ، ولا تتحدث عن الحمام ، بل تدع له اختيار مواضيع الحديث ، ولا تفرض عليه شيئا ، بل هي تلقي بافكارها في سلاسة وهدوء ، ولا تشعره بانها تود لرأيها أن ينفّذ ، أو ترغب في أن تسود وجهة نظرها .. إنها في ذكاء تبدو بلا رغبات أو مطامع ، وتظهر مستسلمة لمجريات الحياة متقبلة لها ، راضية باقبال الملك عليها ، وبزهوه وفخره بها ، وكأنما قد تحقق لها كل ماتحلم به كل فتاة .. ولكنها في وحدتها كانت تبدو غير ذلك .. هي تفكر ، وتحلم ، وتعقد جبينها ، وتسند راسها على كفها والخواطر تلهث في راسها ..

- ٨ -

(الملكة)

جلست الوصيفات من حول «سميراميس» زوجة الملك ، وكثيراً ما كانت تغفل عنهن وتتساهن وتسرح ، وتحلم ، وما من أحد يدري أويدرك إلى أين تطوّح بها طموحاتها ، وتمضي بها آمالها ..

- مولاتي ، ماذا بك ؟

وتتنبه «سميراميس» وترد بسرعة كأنما تخشى أن تقرأ واحدة من الوصيفات أفكارها :

- لا لا .. لاشيء !

وتسكت ، وتسرح ، إنها تفكر ، وتنصح ، وتشير ، وتدبر ، لكنها ليست صاحبة الكلمة الأخيرة .. هناك حدود ، وقيود ، وكل مالها من قوة وعظمة إنما تستمدها من أنها بجانب الملك بجواره ، لا أكثر ولا أقل .. إن الناس يعرفون مدى ذكائها ، وقدراتها الواسعة ، وأفكارها العظيمة ، لكنها من دون سلطة أو سلطان ..

وتحلم بالا تكون ظلاً ، والاحلام بلا نهاية ، بلا أفق .. هناك دائماً مجال للحلم الواسع العريض ، والحلم بالحكم يؤرّقها .. وهي تجد نفسها حين يلتف من حولها حمامها يناغيها وتناغيه ، وتشعر معه انها ملكة ، اما مع الناس فهي لاتزيد على ان تكون «زوجة الملك» ، لا اكثر ولا اقل .. ترى ، هل سمعت عن «حتشبسوت» و«كليوبترا» أم سمعوا عنها ؟ ! .. لاندري ، لكن أحلامها بدأت تصبح شيئاً ملحاً ، وكم من مرةٍ استدعت إليها المنجّمين ليحدثوها عما ينتظرها ، ولكنهم في كل مرة يغمغمون بكلمات غير واضحة ، تفهم منها انهم يجاملونها بقولهم أن نجمها في صعود ! وانه سوف يضيء ويلمع !!

وهي لاتصدق ما يقولون ، لان الناس في الحرب والسلم ، في الشوارع والميادين ، في الليل والنهار يهتفون لملكهم ، وليس لها .. إنه صاحب الانتصارات ، وهو وراء كل توفيق يصيب البلاد والناس ..

ولكن ذات صباح صحا الناس ليسمعوا بالخبر الحزين .. لقد رحل الملك عن الدنيا .. توفي .. وتولت سميراميس العرش ، واصبحت ملكة متوّجة ، لها جيشها ورجالها ، وعيونها التي ترى ، وآذانها التي تسمع ، وارتفعت الهتافات باسمها عالية ..

- سميراميس .. سميراميس .. سميراميس !

وانطلق الناس إلى الشوارع والطرقات يتغنون باسمها ويرقصون طرباً في حين امتلأت السماء بالحمام يطير هنا وهناك ، وهديله يعلو .. ابنته صارت ملكة .. واصبح كل شيء في يدها وتحت أمرها .. ولا أحد ينازعها السلطان في كل أشور .. لقد صعد نجمها بحق ، هذه الفتاة التي تحلم وتحلم ..

هاهي تجلس وحدها على العرش .. وتسرح ، وتحلم .. وتدخل الوصيفات إلى القاعة فلا تحس بهن ولا تتنبه لواحدة منهن اقتربت منها هامسة ..



- ها قد اصبحت «ملكة» يامولاتي ، بماذا تحلمين ؟

وتبتسم سميراميس ابتسامة حلوة ، وتقول :

- اريد ان اصنع الكثير من اجل آشور ..

- وماذا تبغين لنفسك ؟

- لنفسي ؟ ! .. لاشيء ..لا لا ، بل هناك امر مهم ..

- اي شيء هو ؟

- ارجو الا تسخروا منه او تضحكوا له ..

- من يجرؤ ؟ من يستطيع ؟

- اريد أن أتوسل إلى شعب آشور ..

- تتوسلين ؟ ! جلالتك الملكة ، تأمرين !

- لا تضعوا على لساني كلماتكم .. أعرف جيداً ما اقوله .. إني اتوسل لشعب آشور أن يقبل رجائي ..

- ماذا تريدين ؟

- أن تبقوا على حياة الحمام .. والا تذبحوه ! وتتطلع إليها عيون الوصيفة في دهشة ، وتضيف «سميراميس» :

- لقد اطعمني وأرضعني ، وأريد أن أرد له فضله ..

وينتشر الأمر في كل أرجاء آشور ، ويتهامس الناس :

- ما ارق أحاسيسها ..

- ياالقلبها الحنون ..

- مشاعرها طيبة !

وامرت الملكة «سميراميس» فور هذا بان تدق الطبول ، وان تستعد الجيوش .. المملكة المرهوبة الجانب هي التي تستطيع ان تبقى وتعيش .. البلاد القوية هي التي يمكنها ان تعيش عصر الغابة .

الحمام يحمل رسائل «سميراميس» إلى كل اطراف المملكة ، والجيوش تستعد على قدم وساق ، ولا احد يدري إلى اين ستقودها الملكة الذكية الجميلة ، والحماسة تملأ الجنود ، والشباب يقبل على الالتحاق بقواته المسلحة ، والبلدان البعيدة والقريبة ترتجف فرَقا وخوفا ، وتتساءل ..

- هل تتجه الملكة بجيوشها شرقاً أم غرباً ؟ !

إن سميراميس تعلن في كل لحظة انها تستكمل مسيرة الملك العظيم زوجها الراحل (نينوس) . والناس تبتسم في حيرة لدى سماعهم ذلك ، لكنهم مشغولون بتعبئة الجيوش ، وإعداد خطوط تموينه ، وتجهيز الأسلحة .. إن عصر الفاتحة يفتح صفحاته ..

- ٩ -

«الفاتحة»

كانت سميراميس - كعادتها - جالسة تحلم .. لم تكفها احلام الليل وهي نائمة ، وها هي تقضي مدة طويلة من يقظتها وهي لاتدري بما حولها ، إذ هي تنطلق بخيالها إلى آفاق بعيدة .. وايقظتها دقات السيوف من فوق الدروع واسمها يترنم به الجنود ، ويهتفون في ساحات القصر :

- سميراميس .. سميراميس ..

افاقت الملكة ، وكان لابد ان تخرج إلى الشرفة لكي تحيي هؤلاء الذين يرددون اسمها في جنون ، وما إن ظهرت حتى كادوا يفقدون صوابهم ، وارتفعت صيحاتهم إلى الدرجة التي ازعجوا الحمام الذي يرفرف في سماء المدينة ، فراح يرفرف ويعلو ، ويعلو ، وعيناها تتابعانه في اهتمام كبير ، وموسيقى الهتاف باسمها يتسلل من اذنيها ، إلى قلبها ، فتحس بسعادة غامرة ، وتشعر بالزهو ، وتكاد تطير بهجة وفرحاً لتلحق بالحمام ..

وكان لابد لها ان تشير إليهم ليصمتوا ، فمدت ذراعها البضّ الابيض على آخرها ، وبسطت يدها وحركتها كانما تربت عليهم ، وإذا بالسكون يسود ، حتى إنهم كانوا يسمعون رفيف اجنحة الحمام ، وقالت في صوت شق اجواز السماء كانه السيف البتار ..

- هيا .. إلى بلاد الفرس ، وآسيا ..

ومن جديد علا الهتاف ، ودقت طبول الحرب ، وزحف مائة الف من جنود اشور ، تقودهم «سميراميس» ، وراحوا يجتاحون المدن والقرى ، ويكتسحون كل عدو يقف في طريقهم .. وراحت تجوب اقطار آسيا ، وهم من ورائها يطيلون النظر إلى سيفها اللامع .. يشعر الجيش بالتعب ، ويحس بالعطش ، ويتوقف قليلاً في مسيرته ، فما إن تمر بين الصفوف حتى تبعث رؤيتها عزيمتهم القوية ، وتلقي النظرة الثاقبة فتنهض همتهم ، ويندفعون كالأعصار ، يثبتون رايات اشور على كل مدن الشرق القريبة ، والبعيدة .

وإذا ماأسلم الجنود جنوبهم للرقاد ، وناموا ، راحت تجوس خلال معسكراتهم حالمة كحمامة ، رقيقة الخطو ، هادئة الحركة ، تكاد عيناها الوضاحتان الجميلتان تضيئان الظلام من أمامها ، وهي تواسي الجرحى بابتسامة حلوة ، تشع عذوبة وحنانا ، وإذا بالجرحى والمصابين يشهرون حرابهم وسيوفهم مع صباح اليوم التالي ، حين تشتعل الحرب ، وعندما تروح تلقي اوامرها بصوتها الحاد القاطع ، كسيفها ..

وتحين لحظات انتصار ، وتتوجه بكلماتها التي هي أحلى نغم يسمعه الجيش في أثناء انطلاقه ، ويهزهم صوتها - كانه الانتصار ذاته - وهي تقف في مكان مرتفع تهتف في ابطالها :

- ياجنود آشور ..
يارجال ، ياأبطال ..
ها أنذا سميراميس ، أحبكم من كل روحي ، أحبكم فرداً فرداً ، بكل ما يحتويه قلبي من مشاعر !

وتعزف الأبواق ألحان النصر ، وتعلو الهتافات صاخبة ، وترفرف الرايات شامخة عالية ، هناك عند الحمام الذي يطوف من حولها كأنما يحييها ويحميها .. وكل جندي يحس بعبارة الحب موجهة لشخصه بالذات .

يالمجدك ، ياآشور .. فما من ملك غزا كما فعلت «سميراميس» ، لقد ركعت فارس امام الحضارة الوافدة ، والقوة القادمة في فتوةعارمة ، وتهالكت الممالك كلها ، وما عادت بقادرة على أن تقاوم هذه الحمامة التي اصبحت صقراً ينقضّ بكل عنف ، فتشتت الجيوش ، وتهزم الأعادي ، وتعلي من قدر آشور في كل الدنيا ..

وراحت سميراميس تُقيم نُصُباً تذكارياً في كل بقعة نائية تصل إليها ، ليبقى شاهداً ودليلاً على عظمة آشور ، ومجدها وروعتها ، والفؤاد من حولها قد سحرتهم بجاذبيتها وعبقريتها ، وخُططها العسكرية التي ترسمها ، فإذا بها تُحقّق الانتصارات ، بل المعجزات .. وعندما دانت لها كل أقطار آسيا المعروفة في تلك الايام الغابرة ، بدأت تستعدّ للعودة إلى عاصمة مملكتها ، وفي ذهنها تلمح أفكار ..

ويتحول الجنود البواسل إلى رجال بناء وعمل .. يريدون بلاداً ومُدُناً تليق بهذه الامبراطورية الواسعة الأرجاء الفسيحة الأنحاء .. وتُقرّر«سميراميس» أنْ تبني أجمل مُدُن الدنيا وأعظمها ، وهنا يأتيها المهندسون من كل حَدَب وصوْب ، تأمر فيرسمون بخيالاتهم العريضة البنايات والعمائر ، ويشقّون الشوارع ، ولايَنسَوْن الحدائق والبساتين ..

لقد عادت من فتوحاتها بذهب وفِضّة ، وبالغنائم التي تكفي آشور سنين طوالاً تنعم في غضونها بالرخاء والبناء ، ويسود السلام ربوع البلاد من أجل وَفْرة في الإنتاج ..

وتأمُر أنْ يُبنى لها قصران على ضفّتي الفرات ، يربط بينهما من فوق النهر جسر أنيق جميل ، من خشب الأرز والسرو يبلغ عرضه عَشرة أمتار ، وأقامت على ضفّتيه طريقاً عريضاً ، وأمرت أنْ يُحفرَ من تحت المياه نَفَق تستطيع من خلاله أنْ تنتقل بين القصرين من دون أنْ تُضطرّ إلى عبور النهر .. وأقامت معْبداً رائعاً للاله«بيلوس» .. ويجري العمل على قَدَم وساق .. لكن ذلك كله لم يكن يجعلها بغافلة عن جيشها الذي صنع لها النصر في آسيا ، فراحت تُعيد تنظيمه ، وترتيبه ، ولم يَفُتْها أنْ يستمر الجند في تدريبهم تَحسُّباً لما يأتي به المستقبل ، وهي لاتنسى كيف كانت الغارات على أطراف المملكة تحدث بين الحين والحين .. نعمْ ، لقد صارت مرهوبة الجانب ، يُدوّي اسمها في كل مكان فيُثير الرعب والذُعر ، وماعاد أحد بقادر على أنْ يرفع سلاحه في وجه آشور ..

وُشغلت سميراميس بكل هذا ، وظلت طَوالَ الوقت لاترغب في شيء إلاّ تحقيق هذا الحلم الذي راودها على مدى العُمُر : أنْ تكون ملكة متوّجة .

- ١٠ -

«فتح مصر»

كانت«سميراميس» في قصرها ـ ذات صباح ـ تحلُم .. لقد شهدت أعمال البناء والتشييد، ورَضِيت عنها كل الرضا ، إذْ تسير الأمور على ماتُحِب وتهوى . لكنْ مازالت الأحلام تُراودها ، وسؤال يُلحّ :

ـ هل مازال هناك مجال للمزيد من النصر والمجد ، تحلُم به هذه الملكة الفاتحة ؟ نعمْ ، كان هناك الحُلُم الأكبر : مصر .. لماذا لاتمضي بجنودها إلى أرض الاهرامات والمسلّات ، والفنارات ، وبلد العلم والمعرفة وجامعة عين شمس ، مدينة الطِبّ والحِكمة وامحوتب ؟!

وتُلحُّ عليها الفِكرة إلحاحاً شديداً ، وتستدعي إليها قُوّادها وضُبّاطها وتطرح عليهم هذا السؤال :

ـ ماذا تَرَوْنَ في«السير» إلى«مصر» ؟!

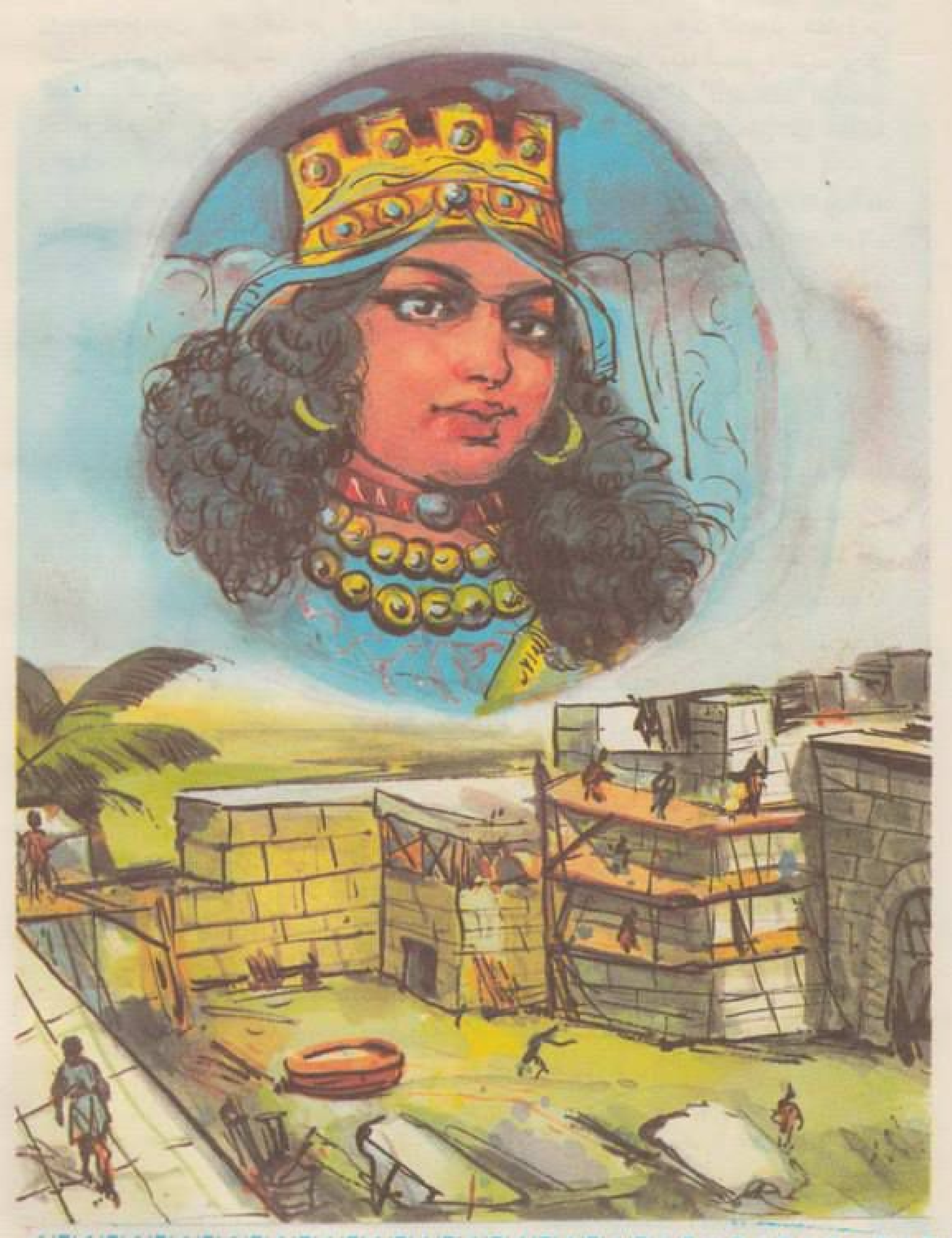
ـ مصر ؟!

تعالت الهمسات بالكلمة ، ودارت رؤوسهم ، ولهثت فيها الافكار والخواطر ، فالإجابة ليست يسيرة ، ولا هي سَهْلة .. نعمْ لقد انتصرت جيوش آشور في كل آسيا ، لكنْ الأمر هنا مُختلف .. إذْ إنّ الفراعنة في ذلك الحين كانوا قد سَجّلوا انتصارات كبيرة ، ونجحوا في اكتساب احترام الدنيا بما أقاموه وشيّدوه ، وبما صنعوه من تقدُّم وحضارة ، وبما حققوه في مجالي العلم والمعرفة .. ثُمّ إنّ الملِكة«سميراميس» لاتُريد أنْ تفقد ماسجّلته من نجاح ، ولا تَودُّ أنْ تخسر معركة واحدة بعد أنْ دوّتْ نجاحاتها في كل الدنيا .. الجميع يُفكّرون قبل اتخاذ هذه الخطوه ، خصوصاً وكثيرون من بينهم عاشوا في الشام ، على حدود مصر ، وسمعوا بأخبارها ، والتقوا ببعض من أهلها ..

لكنّ«الحُلُم» يُلحّ على الملِكة ، وفِكرة الوصول من«العراق» إلى«مصر» تُداعبها ، وتلوح لها أمنية تستحقّ السعي إليها والنضال من أجلها .. ولايطول الجدل بين الذين يُحيطون بها ، فهم أيضاً يوَدّون أنْ يمضوا لا إلى مصر وَحْدها ، بل يرغبون في تجاوزها إلى الصحراء الليبية .. لكن هل يقدرون ؟ هل يستطيعون ؟

الصمت يُخيّم على الجميع ، ينتظرون كلمة سميراميس أوْ إشارتها ، وقد ترامى إلى سمعها منذ بعض الوقت أنّ مصر لم تَعُدْ كما كانت ، وأن هناك مشكلات يُعانيها الفراعنة وأنّ خِلافات كبيرة تقوم في القصر ، وقد خَشِيَت ألّا تكون هذه الأنباء صحيحة ، فتورط بلادها في حرب طويلة لاتطيقها .. فرأت أن تبعث بالرُسُل والأعوان ليعودوا إليها بالخبر اليقين !

وجاءت الأخبار ، أنّ مصر فعلاً تمرّ بظروف قاسية ، وكان أنْ أعطت سميراميس الإشارة بالاستعداد .. ومن جديد راحت السيوف تلمع ، والهتافات الصاخبة تعلو ، والجنود يستعدون



لكي يمضوا غرباً .. وحانت اللحظة الحاسمة ، وخرجت سميراميس على راس جيوشها في طريقها إلى مصر .. ومّما لا شكَّ فيه انَّها في الطريق إلى الشام قد تذكرت رحلتها الأولى إليها مع زوجها«مينونيس» ، فقد كانت هي البداية للمجد الذي تعيشه الآن .. ولَقِيت الجيوش حفاوة من البلدان والولايات التي مرَّت بها ، فإنَّ ذيوع صيت سميراميس جعل منها أسطورة تتردد في كل الدنيا ، واصبح من آمال كل الاقطار التابعة لها انْ تحظى منها بالزيارة ، لذلك كانت الجماهير تخرج لتحيتها ، وتنثر من تحت اقدامها الزهور ، وتُقدّم لها الهدايا ، وتُعلن عن الطاعة والولاء ..

وصلت جيوش سميراميس إلى حدود مصر ، واستعدّ الجنود للمعارك المُنتظَرة ، واذهلهم انَّهم لم يجدوا هناك مَنْ يستعدون إلى لِقائهم وقتالهم .. وفي اليوم التالي لوصولهم اقبل من مصرَ موكب صغير ، يضُمُّ الأمير«كيتاهور» وحاشيته ، وطلب انْ يقابلَ الملِكة ، فقالت :

- مَنْ يكون ؟
- امير منف .
- ماذا يُريد ؟
- لاندري ..
- الا يخشى انْ ناسرَهُ ؟!

وفي هذه اللحظة تعالى عزف جميل على قيثارة ، وصمت الجميع ، وأعطوا آذانهم للموسيقى ، فقد كانت عَذْبة شَجيّة ، ولم يكن هناك مَن يريد لها أنْ تسكتَ ، وما مِن أحد كانَ يرغب في أنْ يُخدّش جمالها بكلمة أو همسة ، حتى«سميراميس» راحت تُصغي في هدوء ، ولم تضِقْ بالنغم الذي لم يكن أحد يعرف له مصدراً ، بل كان واضحاً أنَّها تستمتع به ، بَرغْم أنَّ صاحبه لم يستأذنْها ، مما أثار دهشتها وحُبَّ استطلاعها .. وما إنْ توقَّف العزف حتى تساءلت«سميراميس» عن صاحبه ، وكان الردّ مُفاجأة أخرى .. إنَّه الامير كيتاهور نفسه .. تهتف سميراميس :

- ادْخلوه ..

ويدخل الأمير ، رقيقاً ، وديعاً ، مثل نفحة عِطْر .. يخطو فلا تكاد اقدامه تلمس الأرض ، وينحني في ادب جمّ ، ثُمَّ يرفع راسه من دون انْ تتطلع عيناه إلى الملكة الواقفة في مهابة وقوة .. وتامُر بانْ يُخلِّ الجميع المكان ، ويتردد حُرّاسها ، لكنَّ كلماتِها كانت حاسمة .. فانسحبوا بعيداً ، وهم يخشَوْنَ الغدر ، فطمانتهم بإشارة من يدها ، ساعتها خرجوا ، واغلقوا من ورائهم الباب .. قال الأمير في صوت مُهذَّب ..

- جئت يامولاتي أعرض - نفسي - رهينةً بين يديك ، ضماناً للجزية التي تفرضينها على بلادي !

هتفت سميراميس في دهشة : ماذا ؟!

ـ نحن في ظروف لاتسمح لنا بالحرب ، ولا حاجة بنا إلى القتال ، ونودّ أنْ يسودَ علاقاتنا السلام ، والوئام ..

ـ اليسَ في الأمر خديعة ؟!

ـ ايّة خديعة وحياتي رهينة بين يديك ؟

ـ هل يضمن ذلك أنْ تدفع بلدك الجزية ؟

ـ نعمْ .. أؤكّد ذلك لمولاتي ..

ـ لكنْ ، صارحني بالسبب الحقيقي لقراركم هذا ..

ـ فرعون عندما يخرج للقتال ولا تكفي رؤيته لتشتيت صفوف أعدائه فإنَّ ذلك معناه أنَّ الاله قد تخلّى عنه ، لذلك ضحّيتُ بعرشي لبلادي .

ـ ماتصوّرنا قطّ أنْ ينتهي الأمر بهذه الصورة ولا بهذه السهولة !

ـ إنّه قَدَرُنا ..

نكّس الامير راسه ، وساد الصمت بعض الوقت ، وعندما طال رفع عينيه إلى الملكة «سميراميس» ، ولأول مرةٍ تلتقي نظراتهما ، سريعة ، خاطفة .. هو لا يقدر على النظر إليها احتراماً وخشْية ، وهي لاتُريد انْ ترى فيه مزيداً من الضعف والاستسلام ، تقديراً لبلده ، ومكانته ، وتضحيته بنفسه ليجنِّب شعبه الدمار على يد الفاتحة الباسلة «سميراميس» .



- ١١ -

«السلام»

عادت سميراميس إلى آشور، وعلى رأسها تاج النصر، ومعها الأمير الأسير، وقد تحقَّق لها المجد .. وعندما وصلت إلى عاصمة مملكتها استقبلتها الجماهير بأصوات هادرة، في حين كانت الحمامات تمضي مع موكبها مُرفرفة، كأنها تدرك ماجرى وماحدث .. وعلى جانبي الطريق إلى المعبد الكبير، الذي تَمَّ تشييده، كان الشباب الصغير يقف مُلوِّحاً بالأعلام والرايات، في حين كان الأطفال ينثرون الزهور من تحت أقدامها، وهي تخطو في عظمة وجلال، والموسيقى تصدح، ودُخان البخور يعبق في الجو، وعندما وصلت إلى الدرجة العُليا من سُلَّم المعبد، التفتت إلى الناس الذين غطُّوا الساحة من أمامها، فارتفعت من جديد هتافاتهم عالية صاخبة، وبإشارة من يدها استدعت حامل راية الجيش، فقَدِم نحوها، وانحنى، واقترب منها العَلم، تُداعبه النسمات، فأمسكت بأطرافه، ومالت عليه، حتى احتوى وجهها الجميل، وراحت تقبِّلهُ، والصيحات تشق عنان السماء، فالجماهير ماعادت بقادرة على أنْ تكبح جماح حماستها للملكة الساحرة، وآشور الخالدة .. ومن جديد رفرفت الحمامات وطارت مُبتعِدة إلى السماء تُلاحقها الهتافات.

وانتصبت«سميراميس» فجأةً، وأشارت بيديها الفاتنتين إلى الشعب والجيش في الميدان وقد اختلطا في لحظة من لحظات التاريخ الخالدة، وعندما فتحت سميراميس ثغرها لتتكلم ساد الصمت الرهيب ودوَّى صوتها

- ياأبطال آشور، يارماحها، وسِهامها .. يارجال دجلة والفرات، يادروعها، ياسيوفها .. يامَنْ تغلي في عروقهم دماء النصر، ياجيشي الظافر، أريد أنْ أضَعَ على رأس كلَّ منكم تاجاً، وأرغب في أن أطوقَ أعناقكم بالأكاليل والزهور، لأنَّني يارجال ياأبطال أحِبُكم من كل روحي، من كل دمي ..

ومن جديد عادت الهتافات مصحوبة بدقات السيوف فوق الدروع مُنغَمة، مُوقَّعة، وكلها تُردِّد كلمة واحدة:

- سميراميس .. سميراميس .. سميراميس ..

وأشارت من جديد .. وعاد الهدوء ..

- يابُناة آشور .. وبابل .. ونينوى .. يافاتحي آسيا وافريقيا .. شرَّفتم وطنكم، وأعليتم قَدْرَه، وأستطيع أنْ أرى نجمة في السماء .. ومن حقكم أنْ ترفعوا



الرؤوس ، وأنْ تكشفوا عن جروحكمْ وندوبكم وأنْ تفخروا وتتيهوا بها ، فإنّها من أجل مجد الوطن ..

ولوَّحت للحمائم ، وقالت :

ـ شكرا لكم أنتم كذلك ، ياحُرّاس سمائنا الخالدة ..

وقبل أنْ يعود الهتاف من جديد ، قالت :

ـ والآن ، سوف أدخل المعبد ، لأشكر الاله على مامنحنا إيّاه من نصر وظفر ..

ودلفت سميراميس إلى بهو المعبد تلاحقها الهتافات ..

وعاشت آشور اياماً مجيدة ، ولم تخلدْ الملكة سميراميس للراحة بل راحت تُفكّر وتحلُم :

ـ تُرى ، كيف يعيش اسمي ويبقى على مَر الأيام ؟!

استدعت إليها الأمير المصري .. مَنْ اقدر منه على معرفة اسرار الخلود ؟! ألمْ ينجح ابناء بلده في انْ ينقشوا على صفحات التاريخ امجادهم وفتوحاتهم ؟! وبدأ يُشير عليها بالكثير ، وتعددت اللقاءات ، وعندما جلست الملكة إلى كبير الكهنة ، راح يُحدّثها عن أساليب ذلك الشعب الذي يعيش على ضفاف النيل ، وكيف تعلّم انْ يُحقّق اهدافه بوسائل غريبة وفريدة ، وكيف انّه صَبرَ على النهر ، وراح يُروّضه حتى اصبح طيِّعا بين يديه ، وكيف انّه تمكّن من الإيقاع بالحيثيين وكل مَنْ تسول إليه نفسه الاعتداء على ارضه واهله ، وكيف انّه شعب واسع الحيلة ، وأنّ مالا يقدر على انتزاعه بالقوة والعنف يستطيع انْ يحصل عليه بالدهاء ، وبرَغم كل مايبدو عليه من مظهر بسيط .

استمعت الملِكة إلى هذا البيان الطويل من كبير الكهنة ، كما انّها انصتت لكلام شبيه بذلك من كبير القادة ، لكنّ هذا كُلّه لم يَحُلْ بينها وبين الالتقاء بالأمير الأسير ، وكثيراً ماكانا معاً يتجولان في الحدائق ، وهي تطرح عليه أفكارها ومشاريعها ، وهو يُدلي إليها بخِبراته العريضة ومعارفه الواسعة .. وبدأت تبني المعابد ، وتحفر على جُدرانها قصص فتوحاتها وامجادها ، وراحت تُروّض النهرين لتخضرَّ الأرض فيما بينهما ، كما انّها انشات المُدُن ، وبنت القصور والدور ، واقامت الحدائق ، ونثرت الزهور في كل مكان ..

وذات يوم شعرت سميراميس بالحزن عندما اخبروها انّ الامير الاسير قد لَقِيَ مصرعه في مبارزة بينه وبين قائد الجند وانّ قائد الجند قد أصيب بطعنة سيف اسلمته للفراش ، ورُبّما يبقى فيه طويلاً طويلاً .

وظلّت سميراميس تتابع البناء والعمران فكانت تشهد القناطر إذا اقيمت ، أوْ المشروعات إذا انجزت ، أو المباني إذا شُيّدت .. وكان العمل يجري على قَدَم وساق ، لأنّ الملِكة ارادت ان تُخلّد اسمها بوضعه فوق كل نُصب ، وعلى كل جدار ، وداخل كل معبد ، وراحت تُشرف بنفسها على حدائقها وكثيراً ماكانت سميراميس تسال نفسها :

اتمنى انْ اكونَ ناجحة في دُنيا البناء كما كنت في ميدان الحرب

ـ ١٢ ـ «النهاية»

ذات ليلة سهرت سميراميس وحيدة في حدائقها .. كانت ترمق النجوم بنظراتها الحالمة ، وتسال نفسها السؤال الخالد :

ـ وماذا بعد ؟!

سيطر عليها حُلم الخلود .. إنّها لا تُريد انْ تمضي ، وتذهب كما حدث لِمَن قبلها ، هي تريد انْ تُردِّد الأجيال اسمها ، وانْ تعرف لها مجدها .. وكان الأمير المصري يُشير عليها بالكثير ، لكنّه رحل ولن يعود .. وهي على مدى نهارها وليلها تستعرض احداث حياتها ، وتعيش لحظات مع ذكرى فتوحاتها ، والاخبار تاتيها من كل ارجاء مملكتها انّ الناس مازالوا يُردّدون اسمها ، ويهتفون به ، ويُقدِّرون لها بطولتها وشَجاعتها .. وتسال نفسها :

ـ هل ينتهي كل ذلك بموتي ؟!

وتهتف : لا .. بل لابدَّ ان يبقى على مرّ التاريخ والزمن !
وتنشط سميراميس في التعمير والبناء .. وتفكر ..

ـ تُرى ماذا يمكن انْ اكتب على قبري ؟!

وتستدعي إليها البنائين ، والفنانين ، وتناقشهم في كل شيء .. هي تُريد صروحاً عالية ، واهرامات خالدة ، ومَسلّات باسقة ، يذكرها بها الناس .. وتُريد انْ تبقى حَيّة بعد رحيلها ، لذلك امرت سميراميس انْ تُحفر هذه الكلمات على قبرها :

«إنَّ الحياة خلقتني امراة
ولكن أعمالي ساوتني باشجع الرجال .
فقد جلست على عرش نينوس
الذي يمتد ملكة شرقاً إلى نهر هينامانيس
وجنوباً إلى بلاد البخور والمرّ
وشمالاً إلى حدود بلاد الساس وسوجديان
ولم يتح لآشوري قبلي انْ يرى البحار
اما انا فرايت منها أربعة
لم يمخرْ عبابها احد لبعدها
وجعلت الأنهر تجري حيث أريد



في كل مكان نافع
فاصبحت الأرض كثيرة الخصب
وكذلك انشأت القلاع والحصون المنيعة
وشققتُ بحديدي في الصخر مسالك لمركباتي
لم تقع عينَ حيّ ـ حتى الحيوانات المفترسة ـ على مثلها
ومع ذلك لم تمنعني هذه المشاغل مِن أنْ آخُذ قسطي ايضاً
من اللهوِ والحُبّ» ..

وذات مساء تسال سميراميس نفسها ..

ـ الرحيل ؟ إلى أين ؟!

كانت الحمائم مازالت تلوذ بها ، وتحطّ من حولها ، وتلتقط الحب من بين يديها ، وتُرفرف فوقها ، وتقف فوق كتفها ، والناس يَرَوْنَ ذلك ويسعدون به ، في حين هي حالمة تُفكّر :

ـ لماذا أمضي ؟!

ويكون الردّ : هكذا الحياة ، لها بداية ونهاية !
وتحدّث سميراميس نفسها :
ـ لكنني كنت دائماً مختلفة عن كل الآخرين .. إنني ملكة منذ اثنين وأربعين عاماً .

من حكم مثلما حكمت ؟ ثُمّ .. إنّ فتوحاتي شرقاً وغرباً ، في آسيا وافريقيا ، لم يات بمثلها قائد اوفاتح .. هل يذهب كل ذلك مع الريح ؟!
إنها تحتضن واحدة من الحمامات ، وتضمها إلى صدرها ، وتروح ترفعها لتلصقها بخدها في حنان ، وتحس بالارتياح .. وهي احيانا تَعدُّ الريش في جناح الحمام اوذيله ، وتتطلع إليه وهو يطير من بين يديها ، وتتابعه وهو يصعد عالياً .. وهمست يوماً :

ـ لماذا لا أصعد بالطريقة نفسها

وتقول الاسطورة إنّ سميراميس من شغفها الشديد بهذه الفكرة التي سيطرت عليها ليل نهار تحولت ذات يوم إلى«حمامة» ؟!
كيف كان ذلك ؟ هل حدث بحق ؟!.. لاندري ..
والحكاية تقول انها تنازلت عن عرشها ، ولم تعد راغبة فيه ، وإن جناحين قد نبتالها ، وإنها طارت ، وطارت ، وطارت الى عشها كالحمام الزاجل ! وراحت ترتفع وترتفع الى أن اختفت في الأفق .. ورافقها في رحلتها سرب من الحمام ظل يواكبها الى أن صارت نقطة في صفحة السماء الزرقاء ، وراحت تصغر رويداً رويداً حتى غابت عن الانظار وعن الارض .



السعر داخل العراق : ١٥٠ فلسا
دار الحرية للطباعة
رقم الايداع ٧٥٧ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٧